



المجتمع الإسرائيلي من الداخل في آخر مسرحيات باكتير

التوراة الضائعة



ومسرحيته (التوراة الضائعة) ١٩٦٨م، موضوع دراستنا هذه، ثم مسرحية (سفر الخروج الأخير) التي لم تنشر بعد.

ولما كانت الصهيونية وليدة الاستعمار الذي مزق خريطة العالم العربي والإسلامي، فقد كان باكتير عدوه اللدود فنراه يسخر من الاستعمار البريطاني وأساطينه في مسرحية (إمبراطورية في المزداد) ويتنبأ ببزوغ نجم الشرق العربي، ويهاجم الإنجليز بجرأة ويتنبأ



د. محمد أبو بكر حميد

ومسرحية (شعب الله المختار) ١٩٦٢ تدور أحداثها في تل أبيب وتحلل تصدع الدولة اليهودية من الداخل

الأديب الحق هو ذلك الذي يسكن في قلب أمته يعيش آلامها ويحلم بآمالها، فهو يكون في حياة هذه الأمة أول منذر وأول مبشر، وقد كان باكتير مثال ذلك الأديب حين تنبأ بمأساة فلسطين وقيام دولة إسرائيل قبل قيامها بثلاث سنوات عندما كتب مسرحية (شيلوك الجديد) سنة ١٩٤٥م ووضع لها نهاية لم تكن بعد، ثم توالى أعماله بعد ذلك فكتب مسرحية (إله إسرائيل) ١٩٥٨ يكشف فيها عن التآمر اليهودي عبر العصور



باكثير

■ يُعَدُّ علي أحمد باكثير بلا منازع رائد قضية فلسطين في أدبنا المسرحي ورائد القضايا السياسية الكبيرة في أدبنا الحديث عامة.

«البعد التاريخي»

ففي كل فصل من الفصول الثلاثة نجد مشهداً خيالياً يظهر فيه رجال من التاريخ لهم علاقة بما يحدث في المشاهد الواقعية، وهكذا ابتكر باكثير هذه الحيلة الفنية لإبراز الواقع: بشاعة الحلم اليهودي وجشعه من خلال الرؤية التاريخية لما حدث في

باكثير المشاهد إلى نوعين واقعي وخيالي، المشاهد الواقعية تدور في أحد فنادق القدس حيث ينزل المليونير اليهودي الأمريكي هاري كوهين وأسرتة. أما المشاهد الخيالية فيظهر فيها صلاح الدين الأيوبي وريتشارد قلب الأسد من ناحية وهرتزل وهتلر من ناحية أخرى.

بخروجهم مهزومين من مصر في مسرحيته مسمار جحا الذائعة الصيت، ويصور حركة المقاومة الشعبية ضد الاستعمار الهولندي في إندونيسيا المسلمة في مسرحية (الفردوس المفقود).

وهكذا ظل باكثير - رحمه الله - في كل أعماله شعراً ورواية ومسرحية يحمل هم فلسطين.. يستطلق الواقع ويستشرف المستقبل محذراً أو مبشراً، الأمر الذي جعل إحدى المؤسسات الصهيونية العالمية في أوروبا تطالب بعد وفاته بثلاثين عاماً بمقاطعة أعماله وعدم نشرها أو ترجمتها وتعهده عدواً لدوداً للسامية!!

وكانت (التوراة الضائعة) آخر مسرحية نشرت لباكثير في حياته عن مأساة فلسطين همه العظيم الذي حمله طوال عمره وقد صدرت هذه المسرحية في ديسمبر ١٩٦٩م بعد وفاة كاتبها بشهر، وفي هذه المسرحية يتعرض باكثير للآثار الخطيرة التي نجمت عن هزيمة العرب ٥ يونيو ١٩٦٧م، ومن أهم هذه القضايا الهيمنة اليهودية على مراكز القوة في أمريكا وتسخيرها لخدمة إسرائيل.

وهذه بدورها أدت إلى زيادة هجرة اليهود الأمريكيان جرياً وراء الحلم الصهيوني الذي سرعان ما يكتشفون أنه سراب، ومن ناحية أخرى تبرز المسرحية حركة المقاومة الفلسطينية ودورها داخل الأرض المحتلة أما الشكل الفني للمسرحية فيتكون من ثلاثة فصول يحتوي كل فصل على ثلاثة مشاهد، وقد قسم



هتلر

الماضي بين المسلمين والمسيحيين من جهة وبين اليهود والنازية من جهة أخرى، ففي التوراة الضائعة ليس صلاح الدين وحده الذي يصحو منزعجا من الوحشية الصهيونية في أرض المسلمين وإنما يصحو أيضا ريتشارد قلب الأسد الذي حارب المسلمين في يوم من أيام التاريخ.. يصحو اليوم محتجا لما يحدث في فلسطين - مسقط رأس المسيح - على أيدي اليهود:

ريتشارد: أتدري يا صلاح الدين كيف جئت؟ كنت نائما بقبري في سلام وإذا هاتف أزعجني صوته يقول أعداء المسيح دنسوا قبر المسيح. فقمتم فزعنا وأنا أظن أنهم المسلمون.

صلاح الدين: ولكننا لسنا أعداء المسيح يا ريتشارد وأنت تعلم ذلك.

ريتشارد: كنت يا صلاح الدين. قد نسيت كثيرا مما كان، حتى الطريق إلى فلسطين كدت أضلها» (المسرحية ص ٧).

ويلوم ريتشارد صلاح الدين لوقوع فلسطين في أيدي اليهود قتلة المسيح: ويبيد عجه من الضعف والخور الذي وصل إليه العرب والمسلمون في هذا العصر، ويؤكد أن سقوط فلسطين في أيدي اليهود ليس خطرا على العالم الإسلامي وحده وإنما أيضا على العالم المسيحي! «كان عليكم أن تقاتلوهم وأن تدافعوا عن الأرض المقدسة وإلا فلماذا قاتلتمونا من قبل؟» (المسرحية ص ٨)، ومما لا بد من قوله هنا أن باكتير كان يدين بهذا موقف المؤسسات الصليبية

قلب الأسد؟

ريتشارد: أمريكا؟ أي شيء أمريكا هذه.

صلاح الدين: أكبر شيء في الدنيا اليوم وأحق شيء فيها.

صلاح الدين: وهل سمعت عن الاستعمار والامبريالية؟

ريتشارد: لا.

صلاح الدين: عن الحركة الصهيونية.

ريتشارد: لا.

صلاح الدين: عن الحركة النازية؟

ريتشارد: لا. (ص ٩)

ويعترف قلب الأسد أنه كان نائما ميتا طوال هذه القرون فكيف بصلاح الدين يعرف كل ذلك وهو قد مات مثله.

فيجيبه صلاح الدين: لا يا قلب الأسد كانت الخطوب الكبيرة تنزل ببلادي تترى فلم أستطع أن أنام إلا غرارا فكنت أعي كل ماكان يجري في العالم (ص ١٠).

ثم نرى في أدنى المسرح مخاضة من نار يعذب فيها هتلر وهرتزل وقد ألصق فيها ظهر أحدهما إلى الآخر، ويتساءل ريتشارد بأي حق يعذب هتلر الذي أباد اليهود، إنه يستحق الثناء، وهنا يسجل باكتير على لسان صلاح الدين الموقف الإسلامي الإنساني من زعيم النازية نفهم أن هتلر وهرتزل قد جمعا في جهنم كرجل واحد لأنهما يمثلان مذهبا واحدا.. التفارقة العنصرية بين البشر، فكل منهما ادعى أن أمته سيده البشر وسائر

العالمية ويذكرها بما يجب أن يكون، فمن المعروف أن معظم المؤسسات الكنسية في أمريكا وأوروبا تعلن تأييدها الصريح لدولة إسرائيل وتظهر إليها بعين العطف والتأييد، لأن هذه المؤسسات قد وقعت في براثن الدعاية الصهيونية التي اكتسحت العالم الغربي كله، ومن هنا يستعيد باكتير ريتشارد قلب الأسد الزعيم الصليبي ليستكر باسم روح المسيح ما يحدث في أرض فلسطين، ويستمتع ريتشارد من صلاح الدين للعجائب التي حدثت في الدنيا من بعدهم:

صلاح الدين: والله لا أدري كيف أشرح لك؟ هل سمعت عن أمريكا يا

■ طالبت إحدى المؤسسات الصهيونية العالمية في أوروبا بمقاطعة أعمال باكتير وعدم نشرها أو ترجمتها وعدته عدوا للسامية.



ريتشارد قلب الأسد



صلاح الدين الأيوبي

اليهودي بعد أن أصبحت نصرانية على يدي أبويها، والأسرة تتكون من راشيل ابنتهما المتزوجة التي أثر زوجها أن يبقى في أمريكا، وطفليهما ديل وديانا براون، وجيم ابنتها الشاب الذي لم تستسغ له العقيدة اليهودية وأنا روبرت مربيتهما الزنجية.

ومنذ اللحظة الأولى للمشاهد المسرحية التي يديرها المؤلف بمهارة يبدأ المسلسل الرهيب لسقوط هذه الأسرة في الوحل الصهيوني داخل إسرائيل. يُسلم الأب كوهين زوجته برباره المسيحية للشباب الصهيوني جوزيف - موظف في هيئة تشجيع النسل الإسرائيلي - ليتجول بها في المعابد اليهودية ويذكرها بتاريخ أجدادها ويكتسب عودتها للعقيدة اليهودية من خلال إعجابها بشبابه وهي التي جاوزت الأربعين. وهنا يقوم بوظيفته في تحقيق الحلم الإسرائيلي

الدين لا أستطيع البقاء هنا لأرى جناية هذا العالم المسيحي على الأرض التي باركها المسيح، سأعود إلى قبري وأترك للرب القدير أن يفعل ما يشاء (ص ١١٩).

«البعد الواقعي»

أما إذا جئنا إلى تأمل المشاهد الواقعية التي تدور أحداثها في أحد فنادق القدس فسنعدها تكشف عن خبث وبشاعة الوجه الصهيوني الذي لم يقع في قبضته العرب والمسلمون فحسب وإنما العالم الغربي كله، فهذا المليونير اليهودي الأمريكي مستر كوهين جاء يقطر حقدا على كل ما هو غير يهودي. إن متعته الأولى التي جاء ليتلذذ بها هي مشاهدة ضحايا النايا لم من الفلسطينيين أثناء تناوله الوجبات بالفندق، أما هدفه الثاني فهو إعادة زوجته بربارة إلى أصلها

الأمم لها عبيد.

وفي مشهد الفصل الثاني يظهر ريتشارد قلب الأسد حزينا بعد اطلاعه على مساندة العالم المسيحي لدولة الصهاينة: وإنجلترا كيف أباح لها ضميرها أن تتحمل الوزر الأكبر في إقامة دولة لليهود في الأرض التي قتلوا فيها المسيح ٥٠٠٠٠٠ (ص ٦٢) أية إهانة.. أية مذلة؟ آه لو أستطيع أن ألقى أولئك الحكام الذي باعوا شرفهم وشرف بلادهم وأمتهم لليهود (ص ٦٢).

وهنا يظهر شبعا تشرشل وبلفور، ويسجل باكتير أمنيته في تعاون العالم المسيحي مع العالم الإسلامي لطرد اليهود من مسقط رأس المسيح ومسرى نبي الإسلام عليهما السلام. يقوم ريتشارد بركلهما أمامه عندما يركعان فيتدحرجان وهو يقول لصلاح الدين ساعدني، لكن صلاح الدين يدعو لتركهما حتى لا يلوث نفسه بقيح جهنم الذي يصب منهما.

وفي مشهد الفصل الثالث نشاهد تعذيب هتلر وهرتزل يتصل بصورة ساخرة ويسجل مفارقات عجيبة لهذين العدوين اللدودين وقد اجتمعا في جهنم، وييدي ريتشارد حزنه على ضعف المسلمين في العصر الماضي، فهو لا يحتمل أن يرى اليهود يستغلون ويستغفلون المسيحيين للبطش بالمسلمين، ويحاول صلاح الدين أن يطمئنه بأن الله القوي المتين قادر أن ينبت من هؤلاء العرب المؤمنين من يجاهد لتحرير فلسطين. لكن ريتشارد يعلن في أسى: لا يا صلاح



هذه هي آخر مسرحيات باكثير عن فلسطين، تدور أحداثها داخل الأرض المحتلة تدل على تمكن باكثير من فنه المسرحي وتكشف لنا عن باكثير السياسي الحصيف وعن اطلاعه العميق وتتبعه اليقظ لمجريات الأحداث السياسية، وكعادته في أعماله السياسية الأخرى، نجده في هذه المسرحية يستشرف المستقبل البعيد قبل حدوثه بسنوات.

ففي الوقت الذي كتبت فيه هذه المسرحية كانت الهجرة اليهودية من كافة أنحاء العالم وخاصة أمريكا وروسيا تتزايد، ولم يكن هناك ما يشير إلى فشل هذه الهجرات لكن في أواخر السبعينات ومطلع الثمانيات من هذا القرن بدأنا نسمع عن الهجرة المعاكسة من إسرائيل وبدأنا نسمع عن أن الكثير من يهود أوروبا يصطدمون بالواقع الرهيب في أرض الميعاد فيحاولون العودة إلى بلدانهم فيحصل لهم - في كثير من الأحوال - ما حصل لمستر كوهين وأسرته، واليوم نجد نبوءة باكثير تتحقق إذ يوجد الآن من بين الأمريكيين يهودا وغير يهود من ينشر الحقائق كاملة وعلى شاشة التلفاز للشعب الأمريكي، وقد شاهدت بنفسي ذلك ورأيت الكثير ممن كانوا يناصرون إسرائيل بعمى يقولون نعم للحق الفلسطيني بعد أن شاهدوا وحشية العدو الصهيوني في مقاومة ثورة الحجارة - التي أكدت لهم أن هناك شعباً أعزل عن السلاح يطالب بحقه في أرضه.

وتبدأ آلام برياره إذ تشعر أنها قد خسرت كل ما تبقى لها من قيم، خسرت دينها وشرفها وشرف ابنتها وخسرت ابنها جيم وخسرت زوجها المتصابي الذي ابتعد عنها وراء اليهودية الشابة، ثم يبدأ الأب كوهين، يفيق ويحس بأن الجنة اليهودية في فلسطين سراب ويطالب بسحب ما تبقى من أمواله والعودة إلى الولايات المتحدة، لكنه يكشف أنه لا يستطيع ذلك حين تأتي لجنة لتناقشه في طلبه وينتهي أمره مع اللجنة أو العصابة على الأصح بأن يصادر ثلاثة أرباع رصيده، ثم يكشف أخيراً أن الأب الحقيقي لطفليه من زوجته إنما هو جوزيف موظف لجنة زيادة النسل الإسرائيلي، وعلى إثر ذلك يتشتت شمل الأسرة حين تلجأ الزوجة برياره إلى أحد الأديرة لتكفر عن خيانتها.

وتنتهي المسرحية نهاية سعيدة حين نرى المستر كوهين قد عاد إلى رشده وعرف حقيقة الصهيونية وذهب إلى الدير يريد زوجته أن تعود وهناك يعفو كل منهما عن الآخر ويلتقيان بانبهما جيم الذي كان متخفياً هناك مع بعض رجال المقاومة الفلسطينية، ثم يرجو الأب ابنه ألا يذهب للقتال فهو وحيد، ويتدخل الفدائيون لإقناع جيم بأن رسالته هي أن يعود لأمريكا ليكتب ويتكلم وينشر الصور عن جرائم إسرائيل ليعرف الشعب الأمريكي الساذج حقيقة الأخطبوط الصهيوني.

في زيادة النسل، فتحمل برياره منه ويتوهم كوهين المسكين أنها حامل منه فيسعد الزوج بعودة رجولته وعودتهما إلى يهوديتها، وفي هذه الأثناء تقترب فورتين اليهودية الحسنة خطيبة جوزيف والعاملة أيضاً في هيئة تشجيع النسل - تقترب من العجوز المتصابي مستر كوهين الذي سرعان ما يقع في غرامها، وكانت قد حملت بالفعل من خطيبها جوزيف، وما أن تمكن المليونير العجوز منها حتى تلصق حملها به.

أما الابنة المتزوجة راشيل فتقع في براثن الشاب اليهودي الوسيم إيزال وتتقل للسكن في فندق آخر حتى لا يفاجئها زوجها الغائب بزيارة. ولا تقتصر راشيل على رجل واحد وإنما تتحول إلى امرأة تعطي جسدها للكثير من الرجال بلا حساب.

ولعل نقطة الضوء الوحيدة في هذه الأسرة هي ابنتها جيم الذي ظهر منذ البداية مشمئزاً من تصرفات والده الشاذة ومن حقده الرهيب على كل ما هو غير يهودي، وقد زاده وجوده في إسرائيل إيمانا بحقيقة الصهيونية فتعاطف مع حركة الفدائيين الفلسطينيين واتصل بهم حتى وصل أمره للعصابة الصهيونية، فينضم جيم دون علم والديه إلى صفوف المقاومة الفلسطينية.

ومن جهة أخرى تبدأ الأسرة تحس بالمؤامرة الصهيونية على أخلاقها وأموالها، يعود مستر براون زوج راشيل ويخطف ولديه عائداً بهما إلى أمريكا بعد أن وصلته روائح فضائح زوجته.

« المناقشة والحدث الدرامي؛

أما الشكل الفني في هذه المسرحية فهو يقوم على الحدث والمناقشة وعادة - كشأن الكثير من مسرحيات باكثير - نجد الحدث الدرامي يسبق المناقشة الفكرية، ففي المشاهد الخيالية لا نعيش الحدث نفسه ولكننا نعيش صده من خلال لقاء صلاح الدين وريتشارد قلب الأسد.. إن جسامه الحدث هنا قد أدت إلى حتمية لقائهما - أما مشهد تعذيب هتلر وهرتزل في جهنم الذي شاهده الزعيم المسلم والزعيم الصليبي فما هو إلا بعد ثالث - لحدث ضياع فلسطين وللمناقشة بين الزعيمين - لتكتمل الصورة على خشبة المسرح في ذهن المشاهد فنيا وفكريا، وهذا التصور يستمر في المشاهد الخيالية في الفصول الثلاثة من حيث تصدر المناقشة للحدث بل تحولها إلى حدث درامي يقوم أساساً على مجموعة مفارقات نتيجة لما يحدث من انقلاب في تصورات ومفاهيم ريتشارد قلب الأسد.

وإذا تأملنا المشاهد الواقعية وما يحدث لأسرة المستر كوهين في القدس نجد أن التصور الدرامي قد قام أساساً على التطور المنطقي والحتمي ليس كما خطط له باكثير فحسب وإنما وفق معطيات البيئة العنصرية الصهيونية في الأرض المحتلة، وهنا يكمن سر نجاح المؤلف حين جعل حتمية الحدث الدرامي وتأثيره هو الذي يحدد مصائر أبطال

المسرحية، ليتفق مع الفكرة التي يريد المؤلف قولها لنا.

وإذا كنا لا نعرف ما يحدث ليهود أوروبا وأمريكا في إسرائيل بالتفاصيل التي رسمها لنا باكثير - وهذا مجال متعة ومعرفة - فإننا كنا نعرف النتيجة ونتوقع ما حدث لأسرة المستر كوهين، ولكن لماذا أصررنا على متابعة أحداث



المسرحية بشغف؟.. هنا يكمن السر في الطريقة التي رسم لنا فيها المؤلف وقوع هذا الحدث بتفاصيله، وجعلنا نعيشه لحظة بلحظة من خلال سلسلة مناقشات، لكن مناقشات أبطال باكثير في هذه المسرحية تختلف تماماً عن المفهوم الأرسطي، فعند أرسطو المناقشة تؤدي إلى التعرف الذي يؤدي بدوره إلى التحول في مفاهيم البطل وبالتالي يؤثر

على مسار الحدث الدرامي، أما في هذه المسرحية فتجد التحول لا يتم إلا بالحدث الدرامي أي بالفعل لا بالكلمة المعرفة وحدها، ويتم تعرفنا على الحدث من خلال صده في نفس البطل، ولنضرب مثلاً على ذلك من المشهد الثاني في الفصل الأول: هناك مناقشة تدور بين الشاب جيم ووالده كوهين، يحاول جيم أن يقنع والده الذي يتلذذ متشغياً بمشاهدة الفلسطينيين العرب يعذبون بأيدي الصهاينة بأنهم لا ذنب لهم فالألمان هم الذين عذبوا اليهود، فيقول له والده: إن كل من هو غير يهودي يعتبر من الجويم والجويم، هم أعداء اليهود حتى الأمريكان الذين يتاصرون اليهود اليوم هم أعداء يجب تدميرهم:

جيم: وماذا يكون مصير اليهود الذين هناك في أمريكا؟
كوهين: سؤال وجيه، لا تخف علينا يا بني، فلن يقع ذلك إذا وقع إلا بعد أن تكون إسرائيل قد صارت إسرائيل الكبرى وتتسع يومئذ لجميع يهود العالم.

جيم: معنى هذا أنكم ستستولون على جميع البلاد العربية.

كوهين: نعم.

جيم: أأتطردون شعوبها من ديارهم كما فعلتم بشعب فلسطين؟

كوهين: نعم.

جيم: وكيف تسوغون لأنفسكم ذلك؟

كوهين: أتسألني هذا السؤال يا جيم وأنت تحفظ التلمود؟ ماذا



في السلوك، وطريقة التفكير ثم فوق هذا كله نجد أن هذه الشخصيات في مجموعها تمثل عينة من يهود المجتمع الأمريكي.

أما جانب التوفيق الدرامي الذي أحرزه باكثير في رسم شخصياته فهو أنه تعامل معها بموضوعية، وهذا يعني أن المؤلف لا يبدو وكأنه قد حدد موقفاً من هذه الأسرة اليهودية قبل بدء المسرحية، فمُنذ وصول هذه الشخصيات إلى البيئة الجديدة وهي أرض فلسطين المحتلة رأيناها تتصرف طبيعياً وفق منطقها في التفكير وتكوينها النفسي واستعداداتها الشخصية، ومن ثم رأينا انعكاس ظروف البيئة الصهيونية الجديدة عليها، هكذا كان حال مستر كوهين الذي جاء إلى إسرائيل يحمل عقدة الجويم كارها لكل ما هو غير يهودي.

أما المبرر النفسي والفني لسلوكه هذا فهو أنه اكتوى بنار النازية حتى إننا رأينا يكشف عن ظهره وصدره ليظهر الحروق فيهما، فكان هذا سر متعته بمشاهدة ضحايا النازيين من العرب ثم انغماسه في حمأة الجنس مع فتاة شابة في سن ابنته كان له أثره في عماء الروحي وهو أمر لا يجده من هو في مثل سنه (٦٠ عاماً) في أمريكا بالسهولة نفسها التي يجدها في إسرائيل.

وإذا نظرنا إلى سلوك زوجته برباره (٤٥ عاماً) فنجد أنها تمثل نوعاً من نساء المجتمع الأمريكي المتعدد الأنواع، فهي من النوع الذي

تدعونا - كلما تسارع نبضها - إلى أن نرثي لحال المستر كوهين وحال أمثاله من آلاف المخدوعين بالدعاية الصهيونية وبعقيدتها المزيفة.

يتحول كوهين إلى بطل مأساوي - والبطل المأساوي هو ذلك الذي يساق إلى حتفه بارتكاب أبشع الجرائم بدون أن يعلم أنه يسير في الظلام، وبأكثير يتوغل بالمفارقة الدرامية ليصور لنا مأساة أسرة كوهين، لقد ظن مستر كوهين إسرائيل هي جنة المستقبل التي يبحث عنها، وظن المسكين أن زوجته الكهلة قد حملت منه، وظن أن فورتين الشابة الحسنة قد حملت منه، وظن أنه يستطيع استثمار ملايين في بنوك إسرائيل، اعتقد اليهودي العجوز في هذا كله من بداية المسرحية حتى قاربت نهايتها. أما نحن من مشاهدين وقرء فقد جعلنا المؤلف نطلع على كل شيء منذ أول لحظة ونذكر أن كوهين قد خدع بهذا كله، وإن كان ما توهمه ليس صحيحاً.

ومن خلال هذه المفارقة الدرامية استطاع باكثير أن يحدد نوع عاطفتنا من المستر كوهين: وهي أن نرثي له ونرثي لأمثاله من المخدوعين بأي شيء كاذب وبأي سراب، وكان العمل الفدائي الفلسطيني هو الأمل الذي ظهر في آخر المسرحية وأعان كوهين على فهم الحقيقة وتعلمها ثم طلب من مستر كوهين وابنه العودة إلى أمريكا للتعريف بحقيقة إسرائيل.

أما بقية شخصيات المسرحية فقد رسمتها ريشة باكثير الدرامية بصورة لا تجعل أية شخصية تشبه الأخرى

يقول ميمانود يا بني عن الشعوب السبعة التي كانت في أرض كنعان؟ اتل الآية؟

جيم : (كأنه يتلو من كتاب) قال ميمانود: يجب قتل الأجنبي لأنه من المحتمل أن يكون من الشعوب السبعة التي كانت في أرض كنعان المطلوب من اليهود أن يقتلوها عن آخرها (ص ٢٨).

وتنتهي المناقشة بأن يعلن جيم أنه لا يؤمن بهذا التلمود ولا يعقل أبداً أن يكون هذا الكتاب من عند الله (ص ٢٩).

والآن نجد أن هذه المناقشة قد أضافت إلى وعينا الكثير عن حقيقة العقيدة اليهودية، ولكن هل دفعت هذه المعرفة بالحدث الدرامي؟ نقول: لا لم تدفع به إلى الأمام نحو النهاية ولكنها طورته، وتطور الحدث الدرامي عند باكثير في مناقشات هذه المسرحية هو المعرفة التي تضيف إلى معلوماتنا وتعطي الحدث الدرامي بعداً فكرياً عميقاً، وبهذا يكون المؤلف قد وضع في يدينا مفتاحاً مهماً من مفاتيح شخصية كوهين المعقدة وهو إيمانه الأعمى بعقيدة التلمود الذي عطل عليه منطق ووعيه.

«مأساوية الأبطال»

وهذا كله يدعونا لتحديد موقفنا من بطل هذه المسرحية - إذا جاز أن يكون لهذه المسرحية بطل - هل نحقد على المستر كوهين.. هل نتعاطف معه أم نرثي له؟ إن المناقشات والأحداث في المسرحية

■ أرهص باكثر بالمقاومة الفلسطينية قبل ظهورها وجسدها في أحسن أدوارها في هذه المسرحية.

يترك الحقيقة ويتناسى الفضيلة إذا كانت المصلحة مع غيرها، ففي البداية رأيناها تقول كلمة الحق في وجه زوجها اليهودي وتبدي تعاطفها مع العرب، ولكنها ما أن تتعرف على الشاب اليهودي جوزيف حتى تلوذ بالصمت، ومن أجل إشباع غرائزها تتحول إلى يهودية ولكنها غير صادقة في يهوديتها فنحن نسمعها تقول .. يهودي يهودي، والتغلب الشاب خير من القرد الهرم (ص ٥٨) ثم تفصح عن طبيعة شخصيتها حين تصرح كنت مسيحية فانقلبت يهودية كما كان جدي يهوديا فانقلب مسيحيا تبعا للمصلحة (ص ٥٨).

وهذه حقيقة تصدق على الكثير من اتباع الأديان في أمريكا، وقد استوعب وعي باكثر هذه الحقيقة بأبعادها النفسية والاجتماعية وهو الذي لم يزر أمريكا في حياته قط.

وأعطى كاتبنا المسرحي الصورة ملامحها الكاملة حين جعل أنا روبرت المربية الزنجية تمثل السود في أمريكا والذين هم أول من فهم معاناة الشعب الفلسطيني لمرورهم بحاله مشابهة، لذلك نجد أنا الزنجية تتعاطف مع العرب لكنها لا تستطيع أن تفعل شيئاً، وإلى جانب هذا فقد كانت الوسيلة الفنية لإظهار بعض الحقائق والمعلومات ودورها يشبه إلى حد ما دور الوصيفة في مسرحيات راسين وكورني في فرنسا القرن السابع عشر، وحتى تكتمل الصورة يكل أبعادها الإنسانية عن تحالف الإنسان الأسود مع قضية

الشعب العربي الفلسطيني نلتقي في إسرائيل بالطالب الأفريقي ماريو الذي يصبح صديقا لجيم ويتعاونان معا على دعم المقاومة الفلسطينية.

أما راشيل (٢٨ عاما) فهي عينة من جيل الزوجات الجديد في أمريكا، إنها من النوع الذي يسقط كل القيم ويتجاوز كل الحواجز والاعتبارات الأخلاقية والاجتماعية ملبيا نداء الجسد، فهي ما إن أحست بجوع جسدها حتى أسلمته طائفة مختارة بلا ثمن نسيت زوجها المقيم في أمريكا وأبعدت عنها ولديها وتركتهما للمربية وآثرت السكنى وحيدة في فندق ليسهل التردد عليها، وهذه هي يقول لها أبوها في غضبته التي عاد إلى وعيه فيها.. يأمرها أن تغرب عن وجهه وتذهب إلى عشاقها فترد عليه: إنهم لن يقبلوني اليوم يا أبي إنهم يريدون من تنفق عليهم لا التي ينفقون عليها. اتظن الناس هنا مثل الناس في أمريكا؟ إنهم جميعا شحاذون متسولون (ص ١١٤).

والذين عاشوا في أمريكا يعرفون ويسمعون عن العشرات من أمثال راشيل. وهذا الاقتراب الحقيقي من الشخصية يعطي المسرحية بعدها الصادق في تصوير النفس البشرية وسبر أغوارها، وهذا لا

يتم إلا بفهم المؤلف لطبيعة البيئة التي خرجت منها الشخصية، ولذلك نرى أنه إذا ترجمت هذه المسرحية يوما إلى الإنجليزية ووصلت للقارئ الأمريكي والغربي عموماً فإنه لن يحس بحواجز بينه وبين شخصياتها بل سيحس بفهم هذه الشخصيات لأنه يلقاها في حياته اليومية، وهذا يدل على أن المؤلف قد تعامل مع شخصياته بأمانة وصدق لا بكراهية وحقد - لأنه إذا فعل ذلك سيحجب الحقيقة - لقد ترك الشخصيات تتصرف وفق إمكانياتها وظروفها.. تركها تواجه مشاكلها بنفسها دون أن يصدر حكماً لأن ذلك من شأن المشاهد، ونهاية المسرحية تدل على موضوعية باكثر في تعامله مع اليهود كبشر أولاً لذلك رأيناهم عندما يعرفون الحق يعودون إليه وقد حدث.

والخلاصة في رأيي أن باكثر يريد أن يقول: إن بإمكاننا أن نؤثر على اليهود الغربيين من خلال تمكينهم من الوقوف على الحقيقة كما حدث في المسرحية، وكما يحدث الآن في كثير من البلدان الغربية، وهذا من أهم البينات على إنسانية وعالية فن باكثر الدرامي في (التوراة الضائعة) ■